الأسيرات المسلمات ومعاملتهن لدى الصليبيين في بلاد الشام ٤٩٠-٥٨٣هـ/ ١٠٩٦-١١٨٧م

د. فؤاد عبد الرحيم الدويكات

أستاذ مشارك - كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة طيبة - المملكة العربية السعودية

الأسيرات المسلمات ومعاملتهن لدى الصليبيين في بلاد الشام ٤٩٠-٥٨٣هـ/ ١٠٩٦-١١٨٧م

د. فؤاد عبد الرحيم الدويكات

الملخص:

تبحث هذه الدراسة في ظاهرة الأسيرات المسلمات ومعاملتهن لدى الصليبيين في بلاد الشام، وقد عني البحث بتتبع الحالات التي تعرضت فيها المسلمات للأسر من الصليبيين، وكيف تعاملوا معهن بأسلوب همجي من قتل وتمثيل، ثم ناقشت الأساليب والطرق التي استخدموها في تعذيب الأسيرات، وأميط اللثام عن موقف المجتمع الإسلامي تجاه هذه القضية، وأخيراً أوضحت الدراسة الجهود التي بذلها المجتمع الإسلامي لتحرير الأسيرات من الصليبيين.

الكلمات الدالة: الأسيرات، الصليبيون، المسلمون، معاملة الأسيرات، تحرير الأسيرات.

Muslim Women Captives and their treatment from the Crusaders in Belad Al-Sham (Syria) (490-583 (H/1096-1187 AD

Abstract:

The topic of this study deals with the phenomenon of the Muslim women captives and their treatment from the Crusaders in Belad Al-Sham (Syria), whereas it follows the cases which those captives have faced and how they were treated in a barbarian way of killing and torturing. It also discusses the manners and ways which were used in torturing captives. Meanwhile the study clarifies the efforts of the Muslim society to release those captives from the Crusaders' hands.

Key words: Captives, Crusaders, Muslims, Captives treating, Captives release.

المقدمة:

ما زالت الدراسات الصليبية تستأثر بحيز كبير من اهتمام الباحثين والمؤرخين، ولم تستطع الدراسات التي تمت حتى اللحظة أن تكشف خبايا ودقائق وتفاصيل هذه الحقبة. وهناك جوانب هامة مازالت بحاجة إلى البحث والدراسة، ومنها دراسة النساء المسلمات أثناء الحروب الصليبية، والتصدي لهذا الجانب بالبحث والدراسة محفوف بمصاعب وعقبات كبيرة، فالمصادر الإسلامية تحوي القليل جداً من المعلومات التي تهتم بالنساء المسلمات في هذه الفترة، لكن لا يصعب التقاط ما تناثر من شذرات في بطون المصادر لنرى حضوراً مهماً للنساء المسلمات وبروزهن إلى الحياة العامة في الميادين المختلفة. والمستقرئ لتلك الشذرات يجذب اهتمامه أن المرأة المسلمة سعت إلى تأكيد حضورها الإيجابي، وبرز دورها في المواجهة والتصدي للخطر الصليبي في هذه الحقبة من تاريخ الأمة دون توان أو تردد أو ضعف.

من وحي اهتمامي ورغبتي الذاتية بدراسة النساء المسلمات أثناء الغزو الصليبي، جاء اختياري لموضوع «الأسيرات المسلمات ومعاملتهن لدى الصليبيين في بلاد الشام» ويلحظ الدارس أن موضوع الأسرى خلال الحروب الصليبية شائك ومتشعب، وثمة دراسات كثيرة غطت جوانب متعددة عن الأسرى، إلا أن موضوع النساء الأسيرات ما زال بحاجة لمزيد بحث. وقد ارتأيت أن اختص هذا الموضوع بدراسة علمية تفصيلية من منظور متكامل لتوضيحه والكشف عن مكنوناته علّي أضيف جديداً، أو أوضح بعض النواحي الغامضة. وجاء تناولي للموضوع من خلال عدة محاور:

- معاملة جيوش الحملة الصليبية الأولى للمسلمين.
- الحالات التي تعرضت فيها المسلمات للأسر.
- معاملة الصليبيون للأسيرات المسلمات.
- تعذيب الأسيرات المسلمات.
- موقف المجتمع الإسلامي تجاه قضية الأسيرات.
- طرق تحرير الأسيرات المسلمات من الصليبيين.

وأخيراً وضع الباحث خاتمة للدراسة، تضمنت أهم النتائج التي تم التوصل إليها.

معاملة جيوش الحملة الصليبية الأولى للمسلمين:

في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري/ العقد الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي نكبت بلاد الشام باحتلال صليبي بغيض، بسط سيطرته على أجزاء واسعة من البلاد. وتعتبر فترة الغزو الصليبي في جانب من جوانبها من الحقب المظلمة في تاريخنا الإسلامي، لما لحق المسلمين في الشام من ذل وصغار وقتل وتمثيل وسلب ونهب وانتهاك للأعراض، وتدنيس للمقدسات.

مع بدء الاحتكاك على أرض المعركة بين المسلمين والصليبيين ظهر ما كنّه الغزاة من حقد وتعصب وكراهية، وما اقترفوه من جرائم ورذائل يندى لها جبين أوروبا خجلاً، وحدد هذا الصراع وما رافقه من ويلات وتنكيل ووحشية بربرية طبيعة العلاقة بين الطرفين، وهي علاقة اتسمت بالعدائية منذ اللحظة الأولى. بسبب ما اقترفوه من جرائم ضد المسلمين، وكانت البداية حين اقتحموا مدينة أنطاكية[١] في شهر جمادى الأخرة ٤٩١هـ/ يونيو ١٠٩٨م، ووضعوا السيف في أهلها، وتناولت المصادر العربية واللاتينية بإسهاب تفاصيل هذه المذبحة المروعة، فيروي المؤرخ الصليبي ألبرت فون آخن (Albert Von Achene) أنه لم يسلم من القتل لا كبير ولا صغير، ولا النساء، حتى غطت الدماء الأرض[٢]، ولعل أكثر الروايات دموية وإثارة للمشاعر تلك التي دونها وليم الصوري (William of Tyre) وأبانت عن حجم الكارثة التي حلت بالمدينة وبشاعتها: «تبعثرت الأشلاء في كل مكان، وانتشر الكرب وعويل النسوة، وفي كل مكان ذبح آباء الأسر مع جميع آلهم،... وكانت قد تملكتهم شهوة القتل الجنونية والجشع والنهب، لذلك لم يستثنوا من القتل لا الجنس ولا المنزلة الاجتماعية، ولم يقيموا للسن أدنى قيمة، ولقد استجوبوا كل من قابلوه في شوارع المدينة وساحاتها، ثم أسرعوا بعدما وحدوا قواتهم إلى هناك فقتلوا العبيد واقتحموا دور السكن، ووضعوا السيف في أمهات أسر النبلاء وأبنائهم، ويروى أنه قتل في ذلك اليوم أكثر من عشرة آلاف من أهل أنطاكية، وانتشرت جثث الموتى غير المدفونة على طول الطرقات، تماماً حسبما سقطت»[٣]، وفي بلدة (البارة)[٤] قتلوا كل من وجدوه من المسلمين، رجلا أو امرأة، كبيراً أو صغيراً[٥]، وذبحوا كذلك من وجدوه من المسلمين من

الرجال والنساء في معرة النعمان(٦)، ولم يخل ركن من أركان المدينة من جثث المسلمين، ولم يكن في استطاعة أحد عبور الشوارع دون أن يخطو فوق جثث الموتى(٧)، وبعد سقوط مدينة بيت المقدس في شعبان ٤٩٢هـ/ يوليو١٠٩٩م، صبت القوات الصليبية جام حقدها وبربريتها على سكان المدينة وأعملت فيهم السيف وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ العجز، وفعلوا من الجرائم ما لم يسمع بمثله، ووصفت المصادر العربية واللاتينية أهوال تلك المجزرة(٨)، وهذه المذابح نموذجاً للطابع الدموي البربري، الذي طبعت به الكراهية والحقد والتعصب سلوك الصليبيين.

الحالات التي تعرضت فيها المسلمات للأسر:

طالعتنا المصادر العربية واللاتينية المعاصرة لهذه الحقبة بالكثير من الأخبار التي تظهر كيفية وقوع المسلمات في أسر الصليبيين. وإذا أمعنا النظر في النصوص المصدرية فإن غالبية المسلمات اللواتي وقعن في الأسر كان بسبب الهزائم العسكرية التي لحقت بالمسلمين في المعارك التي دارت بين الجانبين، حيث سيقت النساء والأطفال أسرى مع غنائم الحرب، ومن الأمثلة على ذلك؛ أنه حين هزمت قوات (كربوغا)(٩) أمام أنطاكية ذكر المؤرخ (وليم الصوري) بأنه تم الاستيلاء على الكنوز الكثيرة، ونقلت جميعها إلى أنطاكية بما في ذلك الجواري والأطفال الذين خلفهم الأتراك عندما هربوا(١٠)، أما في بيت المقدس فقد قامت القوات الصليبية بجر عدد من الرجال والنساء الموجودين في المسجد الأقصى، فقتلوا البعض وأبقوا على حياة البعض حسب ما تراءى لهم(١١)، وفي مناسبة أخرى أرسل غودفري البويوني ملك بيت المقدس (Godfry of Bouillen) (٤٩٢-٤٩٣هـ/١٠٩٩-١١٠٠م)(١٢)، قوة عسكرية هاجمت مدينة أرسوف في ٤٩٤هـ/١١٠٠م، وأعملت في سكانها القتل، ثم عادوا ومعهم الأسرى من نساء وأطفال المسلمين إلى القدس(١٣). فهذه الهزائم التي لحقت بالمسلمين أدت لوقوع أعداد كبيرة من المسلمات في الأسر.

وهناك حالات تعرضت فيها المسلمات للأسر أو القتل بفعل مشاركتهن في القتال، ونوهت المصادر العربية المعاصرة ببعض الأمثلة، فقد ذكر ابن منقذ أنه جرى قتال النساء واشتراكهن في الصدام الذي وقع بين سكان شيزر(١٤)، وطائفة الإسماعيلية (الباطنية)

سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م، وهذه صورة واقعية للمرأة المسلمة في هذه الحقبة، وهي أم ابن عمه ليث الدولة يحيى ترتدي الدرع وتضع الخوذة وتحمل السيف، كي تقاتل وتدفع المعتدين[١٥]، ويروي ابن منقذ قصة أخرى عن مشاركة النساء في هذه المعركة، تلكم هي عجوز من جواري جده الأمير أبي الحسن علي، يقال لها فنون، تلثمت في ذلك اليوم، وأخذت سيفاً وخرجت إلى القتال، وما زالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم[١٦].

وفي المصادر اللاتينية من الأمثلة ما يدلل على مشاركة المرأة المسلمة في القتال ضد الصليبيين ففي سرده لوقائع بدء حصار أنطاكية، يذكر المؤرخ بطرس توديبود (Petrus Tudebode) قيام مجموعة من رجال أنطاكية المسلمين بتسلق أحد أبواب المدينة وإمطار معسكر بوهيمند (Bohemond)[١٧] بوابل من السهام، وفي غصون ذلك أصيبت امرأة بضربة سهم قاتلة[١٨].

وشاركت المقدسيات في معركة الدفاع عن بيت المقدس ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، يخدمن المقاتلين ويواسين الجرحى ويداوين المرضى ويسقين العطشى ويدفن القتلى، ولعل في الروايات التالية التي ساقتها المصادر اللاتينية صورة عاكسة لمشاركة المرأة في هذه المعركة. ففي وصفه لاستبسال أهالي بيت المقدس في الدفاع عن مدينتهم، يذكر المؤرخ وليم الصوري بأنه: «كان لدى الصليبيين آلة حربية سببت قتلاً ذريعاً بين المدافعين... وعندما أدركوا أنه لا تستطيع أية مهارة من مهاراتهم السيطرة عليها، أحضروا ساحرتين لسحرهما وتحويلهما بتعويذاتهما السحرية إلى آلة ضعيفة. وبينما كانت هاتان الساحرتان مشغولتين بطقوسهما السحرية وكهانتيهما على السور ضربتهما فجأة حجر رحى ضخمة مقذوفة من تلك الآلة ذاتها فسحقتا مع ثلاث فتيات كن في خدمتهما، ورميت أجسادهن الميتة عن السور بعنف، وهنا ارتفع تصفيق كبير بين صفوف جيش المسيحيين، وملأ الابتهاج قلوب الجميع في معسكرنا، وفي المقابل أصيب أهالي القدس بحزن عميق بسبب تلك الكارثة»[١٩]، وتنم هذه الرواية عن سذاجة الصليبيين وأنهم نتاج مجتمع ساده التفكير الخرافي والإيمان بالأساطير والخرافات والشعوذات والسحر وما له من تأثير[٢٠]، لكني أرى بأن النص يكشف لنا بأن النسوة اللائي استعان بهما المقادسة لتدمير تلك الآلة العسكرية

الضخمة قد يكن من الخبيرات في الآلات والمقذوفات الحربية، ولعل امتلاكهما للمهارة والخبرة في هذا المجال كان وراء الاستعانة بهما، سيما وأن الاستعانة بالخبراء في هذا المجال كان شائعاً آنذاك، وأشار وليم الصوري في أكثر من موضع في تاريخه لذلك[٢١].

أما الرواية الأخرى فأبرزت الدور الذي اضطلعت به المقدسيات في إثارة همم الرجال وإيقاد نار الحماسة في صدورهم للدفاع عنهن وحمايتهن من الوقوع في ذل الأسر وهوانه، ويحدثنا المؤرخ الصليبي أوردريك ڤيتالي (Ordric Vitalis) بأن نساء المدينة صعدن على أسطح بيوتهن، وذلك وفقاً لعادات الفلسطينيين، وأنشدن الأغنيات، بلغتهم وهن يزعقن. لقد غنى بهذه الأغاني وبأغاني كثيرة مثلها النساء التركيات من فوق الأسطحة، وأصغى الصليبيون المندهشون إليهن بعناية، وفهموا من خلال المترجمين لديهم ما كن يغنينه بالتركية[٢٢]. فهذه نماذج لمشاركة المرأة المسلمة في القتال والدفاع عن بيت المقدس تؤكد تفاعلها مع مجتمعها وتفانيها في الدفاع عنه.

ومن الحالات التي تعرضت فيها النساء المسلمات للأسر الرواية التي ذكرها ابن منقذ ولم نجدها في المصادر التاريخية، وتتحدث عن انتشار ظاهرة القرصنة بهدف الاتجار بالأسرى المسلمين، فكانت سفن القراصنة الصليبيين تهاجم المراكب الإسلامية في البحر المتوسط للإيقاع بالمسلمين وأسرهم ليباعوا كعبيد في الأسواق، ومن أمثلتهم، قرصان يقال له: كليام جيبا (Guillaume Giba)، خرج يغزو في مركب له فأخذ مركباً فيه حجاج من المغاربة: نحو أربعمائة نفس، رجالاً ونساء، ثم عرضهم للبيع في سوق النخاسة في عكا، واشترى منهم أسامة من قدر على شرائه، ثم عاد ابن منقذ بعد أيام إلى عكا، وقد بقي من الأسرى عند كليام ثمانية وثلاثون أسيراً، وفيهم امرأة فاشتراها منه[٢٣].

معاملة الصليبيين للأسيرات المسلمات:

اتسمت معاملتهم للأسيرات بالفظاظة والوحشية، ومما اتصفوا به من إساءة معاملتهن أنهم لم يرعوا حرمة النساء ولا صغر الأطفال، أكد ذلك شهادة مؤرخهم فوشيه الشارتري (Fulcher of Chartres): «لم يرحموا امرأة ولا طفلاً»[٢٤]، ومن أمثلة إساءة معاملة

الأسيرات قيامهم بقتل بعض الأطفال أمام أمهاتهم[٢٥]، وتفاخر مؤلف الـ (Gesta) بالمعاملة الوحشية التي عاملوا بها المسلمات في بلدة البارة بقوله: «قتل ريموند كونت سانت جيل (Raymond St. Giles)[٢٦] جميع من وجدهم بها من المسلمين والمسلمات غير مفرق بين صغير وكبير»[٢٧]، ومثله فعل بوهيمند في بلدة الروج -غرب حلب- حيث قتل كل من عثروا عليه رجلاً كان أم امرأة[٢٨]. وفي مدينة بيت المقدس قطعوا رؤوس الرجال والنساء[٢٩].

ومن صور إساءة معاملة الأسيرات القتل والتمثيل بأساليب وحشية، ومن ذلك ما ذكره المؤرخ فوشيه الشارتري عقب هزيمة قوات كربوغا وفرارهم عن أنطاكية بقوله: «أما النساء اللواتي وجدن في خيام العدو فإن الفرنجة لم يمسوهن بأذى، وإنما بقروا بطونهن بالحراب»[٣٠]. فهذا النص يؤشر أنهم اقترفوا مع المسلمات من الجرائم ما هو أفظع بكثير من بقر بطون الحوامل بالحراب.

ومن أساليب إساءة معاملة الأسيرات تجاوزهم الحد في الترهيب والتعذيب اللاإنساني لبث الخوف والفزع في البلاد التي عزموا على احتلالها، وعززوا القصص التي تصور مدى قسوتهم ووحشيتهم ونشروا الشائعات المثبطة للتأثير في معنويات المسلمين، لا سيما في صفوف المدافعين عن أوطانهم، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما فعلوه في التاسع من شباط ١٠٩٨م/٤٩١هـ في أنطاكية حيث قاموا بقذف مائتي رأس من رؤوس الأتراك -رجالاً ونساءً- الذين كانوا قد قتلوهم بالآت القذف، إشارة على انتصارهم ولزيادة كرب المسلمين، ونصبت بقية الرؤوس على أعواد القصب أمام المدينة، وكانوا يأملون أن هذه المناظر المرعبة ستفيد وستكون كالقذى بالعين، وستزيد من آلام المحاصرين الكثيرة والمتنوعة[٣١]، ومن قبيل ذلك أيضاً ما فعله بوهميند من اقتياده للأسرى -رجالًا ونساءً- أمام بوابة أنطاكية وضرب اعناقهم لتكدير الأنطاكيين[٣٢]، من باب النكاية بهم ومحاولة النيل من صمودهم.

وكذلك قيامهم بعد الاستيلاء على قلعة (حارم) بحمل مائة رأس مقطوعة وجلبها إلى معسكرهم لتشجيع رجالهم، ولتخويف المحاصرين[٣٣]، وإرسالهم أربعة من خيول التحميل

محملة برؤوس القتلى ورميها أمام باب مدينة أنطاكية على مرأى من سكان المدينة[٣٤]، وكذلك ما فعلوه أمام مدينة حلب سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، حيث عمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصالهم، فربطوا في أرجلهم الحبال، وسحبوهم مقابل المسلمين[٣٥]، ليستقر في وجدان المدافعين بأنهم وحوش كواسر وبأن كل مقاومة ما هي إلا ضرب من الانتحار، وكان لهذه الأعمال الوحشية تأثيرها على الروح المعنوية، وأخذت تفعل فعلها في الجانب الإسلامي، وكشف المؤرخ وليم الصوري في حديثه عن حصار أنطاكية عن مدى تخوف أهلها من ضخامة الجيوش الصليبية المحاصرة للمدينة، وعلى حد تعبيره فقد ملأت أعداد الحشود الصليبية الضخمة أمام أنطاكية قلوب المدافعين بالخشية، وامتلأت نفوسهم بالرعب خوفاً على أزواجهم وأطفالهم[٣٦]، وأتت هذه الأعمال الوحشية أمام المدينة ثمارها، لا سيما في صفوف النساء والأطفال والشيوخ العزل، وأشار وليم الصوري لذلك بقوله: «كانت عقيلات أنطاكية قد تجمعن مع بناتهن والأطفال الصغار على الأسوار وفي الأبراج مع الرجال المسنين، وجميع السكان غير المحميين، وقد نظروا جميعاً من هناك بالدموع والآهات إلى المجزرة، وحزنوا على قتل ذويهم»[٣٧].

ومن صور إساءة معاملتهم للأسرى -رجالاً ونساءً- إرغامهم على حمل رؤوس قتلاهم[٣٨]، وإكراه الناجين من مذبحة بيت المقدس أن يحملوا جثث ذويهم ويكدسوها ثم يحرقوها[٣٩].

ومن صور إساءة معاملة الأسيرات، إجبارهن على القيام بالأعمال الشاقة، وقد شاهد ابن جبير في مدينة عكا الصليبية الأسيرات المسلمات يصرفن في الخدمة الشاقة تصريف العبيد[٤٠]، وكان المؤرخ فوشية الشارتري قد أكد ذلك بقوله: «استبقينا كثيراً من النساء، وذلك للاستفادة منهن في العمل في دفع الطواحين اليدوية»[٤١]، وهناك حالات استخدم فيها الأسرى -رجالاً ونساءً- في الأغراض العسكرية، حيث كانوا يحضروهم للعمل في البناء وقطع الحجارة وحمل الأخشاب لبناء الأبراج والتحصينات العسكرية[٤٢].

ومن إساءة معاملة الأسيرات بيعهن في الأسواق كالمتاع، فقد اقتاد بوهميند من أسرهم من نساء ورجال بلدة البارة ليباعوا في سوق النخاسة في أنطاكية[٤٣]، والشيء ذاته فعلوه

في مدينة قيسارية بفلسطين، فقد أسر الفرنجة النساء وباعوهن واشتروهن فيما بينهم الجميلة منهن والقبيحة(٤٤)، أما الملك بلدوين الأول (Baldwin I) (٤٩٣-٥١٢هـ/١١٠٠-١١١٨م)(٤٥)، فقد أغار على قبيلة كانت تسكن في المغاور والكهوف بين عسقلان ومصر، فقتل المحاربين، واقتاد النساء والأطفال، ثم وزعهم على الفرسان كأسلاب(٤٦).

كذلك اعتادوا شن الغارات المباغتة ومفاجأة المسلمين وأسرهم لبيعهم في أسواق النخاسة، حدث ذلك مثلاً عندما عبر بلدوين الأول ملك بيت المقدس بقواته نهر الأردن وشن هجوماً مفاجئاً في الليل، وباغت المسلمين في خيمهم، وأسر بعض الرجال، وجميع النسوة والأطفال، واستولى على جميع ممتلكاتهم، ونقل معه كمية ضخمة من الغنائم(٤٧).

ومن صور تعاملهم مع الأسيرات استغلال ضعفهن للحصول على المعلومات عن الجيوش الإسلامية، فقد كان الصليبيون يجمعون المعلومات عن تحركات الجيوش الإسلامية لبناء قاعدة معلوماتية دقيقة. وفي هذا الصدد يؤكد المؤرخ المجهول (Anonymi) قيام قادتهم حين علموا بتحرك الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي(٤٨) صوب عسقلان لمهاجمة الصليبيين بجمع المعلومات الدقيقة عن تحركاته من خلال أسرهم لعدد كبير من سكان المنطقة وحملهم على الإفصاح لهم ببيانات تتعلق بقوات الأفضل وعددهم والنواحي التي يعتزمون قتال النصارى فيها(٤٩)، وتفاخر المؤرخ ريموند أجيل (Raymond Agiles)، بأننا أرغمنا الأسرى على الكشف عن خططهم(٥٠)، وأكد توديبود في روايته بأن الأسرى أفضوا على مضض بأخبار خطط المعركة التي أعدوا لها(٥١)، وأشار وليم الصوري في روايته أنه تم أخذ بعض الأسرى والحصول منهم على معلوماته كاملة عن وضع العدو وخططه(٥٢)، وفي هذا السياق أيضا، انفرد المؤرخ ألبرت فون آخن بالحديث عن حصول القوات الصليبية على معلومات بالغة الأهمية من أسيرة مسلمة حول القوة العسكرية الفاطمية التي حضرت لتقديم المساعدة للسكان أثناء حصار طرابلس ٥٠٢هـ/١١٠٩م والدفاع عن مدينتهم(٥٣).

وعلى الرغم من الوحشية التي تعاملوا بها مع الأسيرات، فإن هناك بعض الاستثناءات التي تعاملوا فيها مع الأسيرة بحسب مكانتها الاجتماعية، فإن كانت من منزلة سامية فإنه

يتم الحفاظ على حياتها طمعاً بالفدية، ومثال ذلك ميمونة زوجة ياغي سيان حاكم مدينة أنطاكية التي وقعت في الأسر فأبقوا على حياتها طمعاً بالفدية(٥٤).

تعذيب الأسيرات المسلمات:

تفنن الصليبيون في استخدام شتى وسائل التعذيب والتنكيل بالأسيرات، والتي تظهر مدى القسوة والوحشية التي تعرضن لها، واعتاد الصليبيون إذا أسروا المرأة أن يفتشوها تفتيشاً دقيقاً، هذا ما أكده أسامة بن منقذ، بقوله: أنه كان من عادة الصليبيين إذا أسرت امرأة فأول ما يعملوه معها قيامهم بتفتيش النساء وأخذ كل ما معهم(٥٥)، ثم تقيد أيدي وأرجل الأسيرة في أصفاد الحديد وتودع في السجن(٥٦)، وأثارت حالة الأسيرات المسلمات اللائي يمشين بصعوبة بالغة بسبب الأغلال والقيود في أقدامهن المرارة والحسرة في نفس ابن جبير(٥٧)، وحتى لا يهرب الأسرى كانت توضع الحراسة المشددة على السجون(٥٨)، أما الحياة اليومية التي عاشتها الأسيرة داخل السجن وما تعرضت له من ترهيب وتعذيب فالمعلومات في هذا الجانب نادرة، لكن يمكن من خلال ما تناثر من شذرات في بطون المصادر الخروج بصورة تقريبية عن أوضاعها وأساليب معاملتها، فقد كانت الأسيرة تستجوب ويحقق معها لحملها على الإفضاء بما لديها من معلومات وبخاصة عن تحركات الجيوش الإسلامية وخططها، وكان التحقيق يتم بوساطة المترجمين(٥٩)، وتدون المعلومات التي تدلي بها الأسيرة في سجلات خاصة، لفحصها وتدقيقها والرجوع إليها عند الحاجة، وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ وليم الصوري بأن الصليبيين استخلصوا من تقارير الأسرى -رجالاً ونساء- (الإفادات) بعد شيء من التمحيص أن عدد الحلفاء الذين قرروا القدوم إلى نجدة أنطاكية كان يقارب ثمانية وعشرين ألف مقاتل(٦٠)، وغالباً ما كانت الأسيرة تدلي بما لديها من معلومات تحت التعذيب والضرب والتهديد والوعيد، وأحياناً بالإغراء والوعد بالمحافظة على حياتها أو أطلاق سراحها مقابل الكشف عما لديها من معلومات(٦١)، هذا ما أكده المؤرخ الصليبي ألبرت آخن الذي تحدث عن المرأة التي أسرها الصليبيين أثناء اقتحامهم مدينة طرابلس وتحت الضرب والتعذيب اعترفت أن هناك جنوداً مصريين مختبئين تحت الأرض في المدينة، وقالت: «إذا ابقيتم على حياتي وتوقفتم عن تعذيبي مع أطلاق

سراحي سأدلكم على أماكن الجنود المصريين»، وبعد إخبار الملك بأمر المرأة دلتهم على مكان الجنود، وأخرجت الفتاة من السجن كما وعدت[٦٢]، وكان أسر المسلمة ودخولها السجن يترتب عليه إساءة معاملتها وتعرضها للاغتصاب داخل السجن وهو أسوأ ما يمكن أن تتعرض له.

ومن طرق تعذيب الأسيرات إجبارهن على القيام بالأعمال الشاقة، ويبدو أنه كان يتم نقل الأسيرات من السجون إلى الأماكن التي يتم فيها أداء تلك الأعمال، وفي هذا الشأن كشف ابن جبير، وهو مما تفرد به عن بقية المؤرخين حالة الأسيرات اللائي أرغمن على أداء هذه الأعمال، يقول: «أسرى المسلمين يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، في أسواقهم خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة، ولا يغني الإشفاق عنهم شيئاً»[٦٣].

ومن الأساليب التي اتبعوها في تعذيب الأسيرات ما فعلوه في معرة النعمان ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، فقد سبوا النساء والصبيان،... وقتلوا تحت العقوبة جمعاً كثيراً، ومنعوا الناس من الماء، وباعوه منهم فهلك أكثر الناس من العطش[٦٤]، ومن ذلك أيضاً ما ذكره المؤرخ ابن العديم عقب غارة جوسلين الأول كورتناي (Josalin I Courtenay) (٥١٣-٥٢٥هـ/١١١٩-١١٣١م) أمير كونتية الرها الصليبية على تل باشر ٥١٣هـ/١١١٩م، حيث عرى العجائز والشيوخ والضعفاء من ثيابهم وتركهم في البرد عراة حتى هلكوا جميعاً[٦٥].

ومن أساليب التعذيب ما رواه المؤرخ ريموند أجيل عما اقترفه الصليبيون مع أهالي معرة النعمان من تعذيب للأسرى حتى الموت[٦٦]، وفي مشهد آخر وصف ريموند أجيل كيف اقتاد الصليبيون الأسرى المسلمين في شوارع المعرة ليدلوهم على أماكن الغنائم، فكان الأسرى يقودونهم إلى الآبار ثم فجأة يلقون أنفسهم في الآبار ليلقوا حتفهم، وعلل ريموند تصرفهم بأنهم فضلوا الموت على أن يكشفوا النقاب عن مكان المتاع المملوك لهم ولغيرهم، وبسبب عنادهم لاقوا حتفهم جميعاً[٦٧]، وأن كنت أرى أن الأسرى أثروا الموت على البقاء في الأسر.

ومن الأساليب التي لجأوا إليها مع الأسرى بغض النظر عن الجنس تجاوز الحد في التعذيب، والتهديد بالقتل لإكراه الأسرى على اعتناق النصرانية قسراً، وبحسب المصادر اللاتينية هناك شواهد تشير لحالات أجبر فيها المسلمون على اعتناق النصرانية ومن قبيل ذلك ما فعله صليبي يدعى ريموند بيليه (Raymond Pilet)[٦٨] هاجم قلعة تل منس -شرق مدينة معرة النعمان- شعبان ٤٩١هـ/ يوليو١٠٩٨م، وأسر كل من فيه من المسلمين، وقد أبقى على حياة من اعتنقوا النصرانية، وقتل كل من رفض منهم اعتناق النصرانية[٦٩]، وأشار المؤرخ المجهول لهذه الحادثة بقوله: ألقوا القبض على جميع فلاحي تلك الناحية وقتلوا كل من أبى اعتناق النصرانية، أما أولئك الذين أقروا الإيمان بالمسيح فقد خلوا سبيلهم وأبقوا على حياتهم[٧٠]، لكن هناك رواية ثانية عن هذه الحادثة رواها لنا ابن العديم مؤداها خروج جماعة من الفرنج في شعبان ٤٩١هـ/١٠٩٨م، وزحفوا مع أهل تل منس وجميع نصارى بلدة المعرة على المعرة وقاتلوها، فوصلت قطعة من عسكر حلب إليهم، فالتقوا بين تل منس والمعرة، فانهزم الفرنج وبقي الرجالة منهم، فقتل زائداً عن ألف رجل وحملت رؤوسهم إلى معرة النعمان[٧١]، ومن يدقق النظر في رواية ابن العديم، سيلحظ بجلاء تعرض معظم سكان المعرة للقتل ولم يشر البتة إلى تخلية سبيل أحد من السكان مما يعني أنه لو صحت الرواية الصليبية بعرض المسيحية على السكان فإن ما آل إليه مصيرهم يظهر بوضوح رفضهم اعتناق النصرانية والثبات على دينهم والقتال حتى الاستشهاد، ولكن ما هو الواقع بالفعل؟ من غير المستبعد أن تكون هناك بعض حالات الردة عن الإسلام في صفوف المسلمين، مردها الإحباط واليأس الذي أصاب الناس بفعل الصليبيين الذين أخذوا يشقون طريقهم إلى بلاد الشام بقصد الاستيلاء على بيت المقدس، لكن تبقى هذه الحالات فردية جرت أثناء المعارك مع المسلمين، ثم بين الأسرى وإن كنا لا نستطيع الجزم بتنصرهم، وقد يكون الباعث وراء ذلك الهروب من قسوة العذاب الذي كانوا يلاقونه، ولعل حديث ابن منقذ عن المرأة المسلمة النابلسية التي كانت مزوّجة لرجل إفرنجي، فقتلته، وكانت وولدها تحتال على الإفرنج ويقتلونهم[٧٢] ينهض دليلًا على نماذج لمسلمات تظاهرن بالارتداد عن الإسلام.

ويتراءى لي بأن تناول المصادر اللاتينية لموضوع الارتداد عن الإسلام لا يخلو من العناصر الدعائية التي تظهر المشاركين في الحملة الصليبية الأولى بمظهر جنود المسيح الذين يبذلون الغالي والنفيس دفاعاً عن المسيحية ونشر معتقداتها بين المسلمين لرفع مكانتهم في أوروبا وحصولهم على دعمها المادي والمعنوي في مواجهة الأعداء.

لكن يبقى من أخطر ما تناولته المصادر اللاتينية ما عمدوا إليه لتنصير أطفال المسلمين، فقد ذكر المؤرخ وليم الصوري أنه جرى بعد الاستيلاء على مدينة قيسارية قتل الغالبية العظمى من سكان المدينة البالغين، وأبقي فقط على الأولاد والبنات الصغيرات[٧٣]، ووجه الخطورة في هذه الرواية سهولة تحويل الأطفال الأسرى إلى المسيحية وتعليمهم إياها، والتساؤل المطروح الآن... اين ذهبوا بهؤلاء الأولاد والبنات الصغيرات؟ من غير المستبعد أن تكون البنات الصغيرات قد سلمن لراهبات ليقمن بتربيتهن وتعليمهن المسيحية، وفي هذا الصدد هناك نص لفوشيه الشارتري ينطوي على دلالة هامة، ففي حديثه عن تأثر الصليبيين بالبيئة الشامية يذكر بأن بعض الصليبيين اتخذوا زوجات لهم لا من بنات جلدتهم بل من السريانيات أو من الأرمنيات بل وحتى من الشرقيات اللواتي حظين ببركة العماد[٧٤]، ويفهم من عبارة فوشية بأنه زواج من نساء تربين على النصرانية، فقد كان محظوراً بشدةٍ أيّ نوعٍ من الاتصال الجنسي مع المسلمين من زواج أو غيره، وأصدر مجلس نابلس٥١٤هـ/١١٢٠م أحكاما قضائية صارمة بمعاقبة المخالفين عقابا رادعا[٧٥]، وهنا نطرح تساؤلاً آخر... أين ذهبوا بالأولاد الصغار الأسرى؟ يبدو أن هؤلاء الأطفال كانوا يعمدون وينشؤون نشأة عسكرية وتمت الاستفادة منهم كمقاتلين في صفوف القوات الصليبية، وذهب أحد الدارسين الأوروبيين في حديثه عن فرقة التركوبولية (Turcoples) وهم أحد صنوف المقاتلين في القوات الصليبية إلى القول بأنه كان يتم تجنيد المسلمين في صفوف هذه القوات[٧٦]، ومن الجائز أن يكون المراد بذلك الأطفال الأسرى الذين ربوا تربية عسكرية وكان لهم دور في صفوف تلك القوات.

موقف المجتمع الإسلامي من قضية الأسيرات:

كان موقف المجتمع الإسلامي تجاه الغزاة الصليبيين عدائياً لما فعلوه من قتل وانتهاك للأعراض وتدنيس للمقدسات، ويتضح هذا الموقف من مشاعر الناس الذين نقموا على الصليبيين وأضمروا لهم الكراهية، وعبر المؤرخين بكل وضوح عن نبض الشارع وموقف المجتمع منهم، فنعتوهم بالأعداء والكفار والمشركين والطغاة والخنازير، وأثارت الممارسات الوحشية التي عاملوا بها الأسيرات مشاعر الغضب والاستنكار بين المسلمين، وسعى المجتمع الإسلامي بكافة فئاته ومكوناته لمواجهة هذا الواقع الجديد الذي لم يألفه، وواجه الصليبيون أشكالاً وأساليب متنوعة من المقاومة الشعبية والتصدي لهم بكل الوسائل والإمكانات المتاحة. ومن قبيل ما قاموا به من إجراءات دفاعية للحيلولة دون وقوعهم بأيدي الصليبيين ما رواه ابن جبير أن أهالي مدينة صور حملتهم الأنفة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها، وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم ثم يخرجون إلى عدوهم بعزيمة نافذة ويصدمونهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ويقضي الله قضاءه، فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم(٧٧).

كذلك كان من بين ما قاموا به، الاختباء في الكهوف والمغاور والهروب إلى الجبال لحماية أنفسهم من الوقوع في الأسر، فعندما حاصرت قوات ريموند كونت تولوز مدينة طرطوس خاف السكان من وصول قوات إضافية خلال الليل يتعذر عليهم مقاومتهم، فما كان منهم إلا أن غادروا المدينة مع زوجاتهم وأطفالهم وجميع أسرهم وهربوا إلى الجبال طلباً للأمان(٧٨)، وفي حديثه عن حملة بلدوين الأول ٤٩٥هـ/١١٠١م على شرق الأردن يذكر فوشيه الشارتري بأن أهالي المنطقة التي مررنا بها اختبأوا مع ممتلكاتهم في ملاجئ تحت الأرض(٧٩).

ويعنينا في هذا المقام الدور المحوري الذي لعبه العلماء في دفع حركة الاستجابة للتحدي الصليبي، فقد رفض غالبيتهم الرضوخ للمحتلين الغزاة، فاختطوا نهجا واضحا للتصدي لهم، ولتحقيق هذا الهدف عملوا على توعية المسلمين بالخطر الصليبي، فمن

ناحية حرص الأئمة وخطباء المساجد على تثقيف عامة الناس من خلال التعبئة المعنوية وحفز العزم وإثارة الهمم لمقاومة الغزاة، واشتهروا بقوة التأثير على العامة، فكان الناس يهرعون لسماع خطبهم ومواعظهم ودروسهم، وكان هؤلاء العلماء يظهرون مشاعرهم ضد المحتلين، ويحرضون الفلاحين على الانصراف للدين وترك العمل للصليبيين في الأرض(٨٠)، وكان الحث على التمسك بالدين والتعمق فيه جزءاً من أعمال المقاومة وسبيلاً من سبل إحياء مفهوم الجهاد في النفوس.

من ناحية أخرى، نهض العلماء بدور كبير في تأصيل مفهوم الجهاد، وشحن النفوس بالقيم الجهادية، وتشكل بتأثيرهم موقف ديني وفكري رافض للوجود الصليبي، وهناك من العلماء من قدم بعلمه واشتراكه في الجهاد المثل الذي احتذاه الناس؛ مثل ذلك أن القاضي أبو الفضل بن الخشاب حضر معركة (دانيت) أو ساحة الدم ٥١٣هـ/١١١٩م، للوعظ والتحريض على الجهاد، وبيده رمح؛ فرآه بعض العسكر فازدراه وقال: «إنما جئنا من بلادنا تبعًا لهذا المعمم! فأقبل على الناس، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم، واسترهف هممهم بين الصفين، فأبكى الناس وعظم في أعينهم»(٨١).

وأخذ العلماء بتأليف الرسائل والكتب للحض على الجهاد ومقاومة الصليبيين، وانتشر بين الناس من بين هذه الرسائل رسالة عن الجهاد كتبها علي بن طاهر السلمي في دمشق حوالي٤٩٩هـ/١١٠٥م(٨٢)، وأوليت قضية الأسيرات اهتماماً خاصاً من جانب العلماء من خلال حرصهم على التعبئة المعنوية وإبراز القيم التي تحث على حماية النساء والدفاع عنهن، ففي كتابه «تراجم النساء» سرد لنا ابن عساكر نموذجًا من هذه القيم، تمثل في الدور الذي اضطلعت به النساء في إثارة الحماس في صدور الرجال للدفاع عنهن وحمايتهن من ذل الأسر وهوانه، فتحدث عن قتال النساء ومشاركتهن في معركة اليرموك، وحين نزل الروم بدير الخل مقابل المسلمين والمسلمون قد تحرزوا وأصعدوا النساء روى باعتزاز موعظة قيس بن هبيرة لـ «أميمة بنت أبي بشر بن زيد الأطول» ونساء المسلمين، قائلاً: «أيتها المرأة –وإياكن أعني أيضاً– قبح الله امرأة تضطجع لزوجها وهذا عدوه قد حل بساحته يقاتله، إذا أراد منها ذلك فلتحث التراب في وجهه، ثم لتقل: أخرج فقاتل

عني، فإني لست بامرأتك حتى تمنعني، فلعمري ما يقرب النساء على مثل هذا الحال إلا فشل- الضعيف الجبان من الرجال»[٨٣]، فهذا النموذج غايته إثارة الحماس في صدور الرجال وتحفيزهم على الإستماتة في الدفاع عن النساء، إذ أن الخوف من وقوع النساء في الأسر من شأنه أن يزيد في استبسال المقاتلين خشية أن يقعن في أيدي الأعداء.

كذلك أبرز العلماء قيمة الغيرة على النساء، وحسب رواية ابن خلكان فإن عماد الدين زنكي كان شديد الغيرة على نساء المسلمين، ولا سيما على نساء الأجناد، وكان يقول: «لو لم تحفظ نساء الأجناد بالهيبة وألا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن في الأسفار»[٨٤]، وهذا من شأنه بث الطمأنينة في نفوس المقاتلين، وأنه وراء الخطوط من يرعى غيبتهم ويحمي نساءهم.

وقد حرص العلماء على نشر هذه القيم في أوساط المجتمع الإسلامي لتحدث الأثر المطلوب بين الناس، وقد آتى هذا الجهد أكله، يتضح ذلك جلياً من التطبيق الواقعي لهذه القيم في تلك الحقبة، والنماذج التي نعرض لها ليست نماذج فردية، وإنما تشكل بمجموعها صورة حية لموقف المجتمع الإسلامي من الوجود الصليبي، ويُظهر النموذج الأول الذي قدمه لنا ابن منقذ في كتابه حالة واقعية للمرأة المسلمة وقد ارتدت الدرع ووضعت الخوذة وحملت السيف كي تقاتل، وكذلك كي تثير الحمية وتستنهض الرجولة في النفوس الضعيفة المتخاذلة، من خلال ما قامت به زوجة أحد أعمامه أم سنان الدولة شبيب، إذ لم يكن ولدها كما ذكر أسامة رجل قتال، فحاول الهروب من الحصن، وفيما هو في الدار يجمع متعلقاته الشخصية التي سيذهب بها، إذا إنسان قد دخل الدار، عليه زردية وخوذة ومعه سيف وترس فلما رآه أيقن بالموت، ثم إن هذا الإنسان نزع الخوذة عن رأسه، وإذا هي أم ابن عمه، ليث الدولة يحيى، فقالت: أيَّ شيء تريد تعمل؟ قال: آخذ ما قدِرتُ عليه، وأنزل من الحصن بحبل، وأعيش في الدنيا، قالت: بئس ما تفعل! تخلي بنات عمك وأهلك للحلاجين وتروح؟ أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في أهلك، وانهزمت عنهم؟ أخرج قاتل عن أهلك حتى تُقتل بهم، فعل الله بك وفعل، ومنعته، رحمها الله، من الهرب، وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك[٨٥].

وهناك نماذج أخرى اتضح من خلالها حرص المرأة على عرضها، بحيث بات الموت أهون عليها من أن يمس شرفها، فقد أجلست أمه أخته الكبرى على شرفه في الحصن وجلست خلفها، حتى إذا اقترب منها العدو دفعتها إلى الوادي «فأراها وقد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة»[٨٦]، والنموذج الثاني للفتاة المسلمة (رفول) التي أسرها الصليبيون ففضلت الموت على الوقوع في الأسر، ورمت بنفسها عن فرس الصليبي الذي أسرها وغرقت في النهر[٨٧]. فهذه نماذج واقعية للحالة التي عاشها الناس وللمجتمع الذي واجه التحدي الصليبي وحقق النصر عليه بعد الهزيمة.

طرق تحرير الأسيرات المسلمات من الصليبيين:

عد أسر المسلمة مكسباً مادياً كبيراً بل وفي بعض الأوقات أكثر أهمية من الرجل لما له من فوائد اقتصادية، فالمرأة يمكن بيعها أو استعبادها أو استخدامها في الخدمة المنزلية أو الأعمال اليدوية أو في الزراعة[٨٨]، ولكون فكاك الأسرى وتحريرهم واجباً دينياً فقد بذل المجتمع الإسلامي على الصعيدين الرسمي والشعبي جهوداً كبيرة في هذا المضمار سواءً كان ذلك بالعمل العسكري أو المفاوضات أو ببذل الأموال.

هناك أمثلة عديدة في المصادر الإسلامية تتعلق بتحرير الأسرى المسلمين –بغض النظر عن الجنس– عنوةً ففي حديثه عن موقعة مرج عيون التي حدثت صباح الأحد ٢ محرم ٥٧٩هـ/٩ حزيران ١١٧٩م، بين المسلمين بقيادة صلاح الدين والصليبيين بقيادة بلدوين الرابع (Baldwin IV) (٥٧٠-٥٨٠هـ/١١٧٤-١١٨٥م)[٨٩] انتصر صلاح الدين انتصاراً حاسماً، وأسر كثيراً من أعيان الصليبيين، منهم الأمير الصليبي باليان الثاني أوف أبلين (Balian II of Ibelin)[٩٠]، وقد طلب صلاح الدين فدية مقدارها مائة وخمسين ألف دينار مقابل إطلاق سراحه، وتم الاتفاق بإطلاق سراحه مقابل دفع الفدية وإطلاق سراح ألف أسير من المسلمين[٩١]، واتبع صلاح الدين انتصاره في مرج عيون بمهاجمة حصن بيت الأحزان على الجانب الغربي من نهر الأردن وتدميره، وخلص من الأسر أكثر من مائة مسلم[٩٢]، أما حملة صلاح الدين الأيوبي على نابلس ٥٨٠هـ/١١٨٤م، فذكر ابن جبير بأن السلطان دهم مدينة نابلس، واستولى عليها وسبى كل من فيها، وامتلأت

أيدي المسلمين سبياً لا يحصى عدده من الإفرنج، وعاد الجيش فائزين بالسلامة والغنيمة، وتخلصوا من أسرى المسلمين (رجالاً ونساء) عددا كثيراً(٩٣).

وبخصوص المفاوضات فقد جرت عمليات تبادل للأسرى منذ فترة مبكرة، ووردت أول إشارة في المصادر اللاتينية عن تبادل للأسرى بعد سقوط أنطاكية ٤٩١هـ/١٠٩٨م، فقد أسر صاحب مدينة سروج(٩٤) الصليبي فولبرت أوف تشارترز(٩٥) ستة من المسلمين، وجرى بعد ذلك بوقت قصير ترتيب لتبادل الأسرى، وتسلم فولبرت لقاء هؤلاء الرجال الستة عدداً مماثلاً من المسيحيين(٩٦).

أما الحصول على المال فكان في طليعة بواعثهم لأسر المسلمين، إذ كان همهم منذ وطئت أقدامهم بلاد الشام الاستيلاء على الثروات، وتحقيقاً لهذا المبدأ فقد تفننوا في ابتداع الوسائل لجمع الأموال، لقد كان حب المال مقدماً على ما سواه فهم جنس شديد الطمع(٩٧)، وفي هذا السياق أكدت المؤرخة البيزنطية أنا كومنينا (Anna Comnena) على نهمهم وجشعهم وحبهم للمال بصورة تفوق الوصف، لقد كان اللاتين على الدوام شعباً نهماً للمال بصورة غير طبيعية، ويبلغ نهمه هذا أقصاه إذا كان المال عن طريق غارة(٩٨)، وكان جشعهم يقودهم دائماً لنقض اتفاقياتهم من غير مبرر(٩٩)، وكان أحدهم على استعداد لبيع زوجته وأولاده مقابل حفنة من مال(١٠٠)، ولم تخف المصادر اللاتينية ما امتازوا به من الجشع وحب المال(١٠١)، فبعد الاستيلاء على مدينة قيسارية اقتيد قاضي المدينة مع النساء الأسيرات إلى الملك بلدوين الأول، الذي أجبره على دفع مبلغ مالي كبير مقابل الإبقاء على حياتهم(١٠٢).

وفي بعض الحالات تعامل الصليبيون مع الأسيرة بحسب مكانتها الاجتماعية، أملاً بالحصول على فدية كبيرة من المال، مثال ذلك افتداء شمس الدولة ابن ياغي سيان أمه وطفليه بمبلغ ثلاثة آلاف قطعة ذهبية بيزنطية سلمها إلى وليم فون بروفانس من حاشية الأمير ريموند كونت سانت جيل(١٠٣). وفي معركة الرملة الثالثة ٤٩٨هـ/١١٠٥م، جلب بلدوين الأول عدداً من الأسرى المسلمين –رجالاً ونساء– بينهم حاكم عكا السابق (زهر الدولة بنا الجيوشي)، وأخذ بلدوين عنه فدية قدرها عشرون ألف قطعة ذهبية سوى

الخيول والأشياء الأخرى[(١٠٤)]، وأظهر فوشيه الشارتري حسرته وألمه لعدم تمكن الصليبيين من أسر الأمير سناء الملك في هذه المعركة بقوله: «آه لو وقع سناء الملك، قائد جيشهم في الأسر، كم من الأموال كانت دفعت للملك بلدوين»[(١٠٥)].

وحدثنا وليم الصوري عن غارة شنها بلدوين الأول بصورة مفاجئة على شرق الأردن، فقتل عدد من الرجال وأسر جميع النسوة والأطفال، واستولى على جميع ممتلكاتهم، ونقل كمية ضخمة من المغانم وعدداً كبيراً من الجمال والحمير، ورجع بلدوين بعسكره يسوقون أمامهم القطعان والمواشي والعبيد المأخوذين غنيمة، وكان بين الأسرى امرأة ذات منزلة سامية وهي زوجة زعيم قوي وعظيم فوجئت بالكارثة وفي الطريق فجاءها المخاض ووضعت حملها ونقل الخبر إلى الملك، فأمر بإنزال المرأة عن الجمل الذي كانت تركبه وأن يجهز من المغانم سرير بسرعة على الأرض، وزودت بالطعام وبقربتين من الماء، كما أعطاها خادمة بناءً على طلبها، وخصص لها جملان تتغذى على حليبهما ولفها بلدوين بالعباءة التي كان يرتديها وتركها واستأنف السير مع جيشه[(١٠٦)].

والإجلال الذي يبديه المؤرخ وليم الصوري لشهامة بلدوين الأول وإحاطته بهالة من المروءة واللياقة والرحمة وإغاثة الملهوف، يتناقض مع الحقائق والوقائع التاريخية وهو من اشتهر بجشعه، وكان حبه للمال أقوى من أن تغلب عليه الدوافع الإنسانية، وقد طلق زوجته أردا أبنة طوروس الأرمني التي تزوجها عندما كان كونتاً للرها لرغبته في الزواج من امرأة أكثر ثراء، ليحسن من حالته ويتخلص من الفقر الذي أثقل كاهله، وعلل طلاقه من زوجته بإخفاق أبيها في إكمال دفع مهرها[(١٠٧)]، كذلك فإن إقدامه على الزواج من أدليد كونتيسة صقلية (Adelaide de Sicile) كان بدافع الحصول على المال فقد كانت أدليد امرأة ثرية وذات نفوذ كبير، وقد زود سفارته التي أرسلها لطلب يدها للزواج بالموافقة على كل الشروط التي تطلبها وحثهم للسعي بكل الوسائل الممكنة لجلب الكونتيسة معهم، فقد كانت سيدة ثرية وامتلكت كل شيء بوفرة كبيرة، خلافاً له فقد كان فقيراً ومعوزاً ولم يَّسد دَخله إلا بصعوبة احتياجاته اليومية ودفع أجور فرسانه، لهذا تاق لرفد موارده الضئيلة من فائضها[(١٠٨)]، مما يجعل الرواية عن مروءة ورحمة بلدوين رواية أسطورية

غايتها دعائية لإعلاء شأن الملك وإظهاره في صورة الملك المتصف بالنبل والأخلاق الرفيعة من جانب وليم الصوري.

وبمرور الوقت وحرصاً من الصليبيون على الأموال وتكديس الثروات بدأت ظاهرتي جلب الأسرى والاتجار بهم تأخذ طابعاً منظماً؛ وأصبح لها أعراف وتقاليد، حرصوا على احترامها، وقد أخبرنا ابن جبير في الرواية التي انفرد بذكرها، عند مروره بمدينة بانياس(١٠٩) أنه اعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويج، أُعلمنا أنها تعرف بشجرة الميزان، فسألنا عن ذلك، فقيل لنا: هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الإفرنج، وهم الحواسة والقطاع، من أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أُسر، ومن أُخذ دونها إلى جهة بلاد الإفرنج بقدر ذلك أطلق سبيله، لهم في ذلك عهد يوفون به، وهو من أظرف الارتباطات الإفرنجية وأغربها(١١٠).

تأسيساً على ما تقدم، سعى المجتمع الإسلامي بكل فئاته وعلى الصعيدين الرسمي والشعبي لفكاك الأسيرات وتحريرهن. فعلى المستوى الرسمي. ذكر ابن العديم أن الملك رضوان صاحب حلب عزل سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م، وزيره أبا النجم هبة الله بن محمد بن بديع، وولي وزارته أبا الفضل هبة الله بن عبد القاهر بن الموصول، الذي اشتهر بحسن السيرة وكثرة الصدقات، وكان يبذل أموالاً ضخمة في فكاك أسرى المسلمين(١١١)، وجعل نور الدين زنكي فكاك أسرى المسلمين من أولى أولوياته، وامتدح ابن جبير جهوده لتحرير أسرى المغاربة الذي حضروا إلى بلاد الشام للجهاد ضد الصليبيين، لإنفاقه اثني عشر ألف دينار فداءً لهؤلاء الأسرى -رجالاً ونساءً-، وكان يقول في أسرى الشام هؤلاء يفتكهم أهليهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم(١١٢) كذلك كان الأمير مظفر الدين أبو سعيد كوكبري الملقب بالملك المعظم مظفر الدين صاحب أربل يُسير في كل سنة دفعتين جماعة من أمنائه إلى بلاد الساحل ومعهم جملة مستكثرة من الناس يفتك بها أسرى المسلمين -رجالاً ونساءً- من الكفار، فإذا وصلوا إليه أعطى كل واحد شيئاً، وإن لم يصلوا فالأمناء يعطونهم بوصية منه في ذلك(١١٣).

وأجاز فقهاء الإسلام تخصيص الأوقاف لفكاك أسرى المسلمين من الصليبيين، وممن اهتم بذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي أوقف مدينة بلبيس على فك أسرى المسلمين الذين أسرهم الصليبيين في حملتهم على مصر ٥٦٤هـ/١١٦٨م، واستمر هذا الوقف حتى تم فكاك جميع الأسرى(١١٤).

وفي حديثه عن الأمير عز الدين أبي العساكر سلطان بن منقذ، ذكر أسامة بأنه كان قد تزوج من امرأة وطلقها وقد وقعت في أسر الصليبيين، فقال: ما أدع امرأة تزوجتها في أسر الإفرنج فاشتراها بخمسمائة دينار وردها إلى أهلها(١١٥).

أما على الصعيد الشعبي فقد تسابق أبناء المجتمع في أنفاق الأموال لتحرير الأسرى بغض النظر عن الجنس، فقد استثمر أسامة بن منقذ علاقاته الدبلوماسية مع الصليبيين لافتداء أسرى المسلمين من الحجاج المغاربة الذين وقعوا في أسر الصليبيين وفيهم امرأة خلصها الله واشتراها منهم(١١٦).

واعتاد مسلمو الشام تخصيص جزء من تركاتهم لافتكاك المغاربة لبعدهم عن بلادهم، وأنفقت المسلمات الثريات من أموالهن لفكاك الأسرى(١١٧)، وأفرد ابن جبير في رحلته مساحة للحديث عن تعاون أبناء المجتمع الشامي لإطلاق سراح الأسرى المغاربة، وخص بالذكر رجلين من تجار دمشق، وهما: نصر بن قوام، وأبي الدر ياقوت مولي العطافي، خصصا أموالاً ضخمة من أموالهم وأموال ذوي الوصايا لافتداء الأسرى المغاربة، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا على أيديهما(١١٨).

وهناك حالات وأن كانت قليلة تخلصت فيها بعض الأسيرات من ذل الأسر بالهرب، ومن أمثلة المرأة المغربية التي اشتراها اسامة بن منقذ، ولم يدفع للتاجر الصليبي ثمنها، وحين عاد أسامة إلى عكا ليدفع ثمنها ويخلصها من الأسر كانت قد هربت مع عدد من الأسرى، وأعانهم على الهرب سكان القرى المجاورة لعكا وكانوا من المسلمين إذا وصل إليهم الأسير أخفوه، وأوصلوه إلى بلاد الإسلام(١١٩).

الخاتمة:

خلصت هذه الورقة البحثية إلى عدد من النتائج نوجزها على النحو التالي:

- أبدى الصليبيون في اكتساحهم لبلاد الشام دوراً من الوحشية والهمجية ونشروا الخراب والدمار في المدن والقرى التي اجتاحوها، وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ العجز، بصورة تظهر الحقد والكراهية والتشفي والرغبة في إراقة الدماء.

- تعرضت معظم المسلمات للوقوع في أسر الصليبيين بفعل الهزائم العسكرية التي لحقت بالمسلمين في المعارك التي دارت بين الطرفين، وبدرجة أقل بفعل المشاركة في مقاومة الصليبيين والتصدي لهم.

- اتسمت معاملة الصليبيين للأسيرات بالفظاظة والوحشية ما بين قتل وتمثيل بالأسيرات بصورة غير مألوفة، وما بين مبالغة في إساءة معاملتهن للتأثير في معنويات المدافعين عن بلادهم والنيل من صمودهم، وامتهانهم لكرامة المرأة المسلمة التي بيعت في الأسواق كالمتاع.

- تفنن الصليبيون في تعذيب الأسيرات بالضرب والتعذيب، والإكراه على القيام بالأعمال الشاقة، بل وتجاوز الحد في التعذيب لإرغامهن على التنصر قسراً، ومارسوا التنصير القسري بين الأولاد والبنات الصغار.

- أبرزت الدراسة دور المرأة المسلمة في المواجهة والتصدي للخطر الصليبي خلال هذه المرحلة من تاريخ الأمة دون تردد أو ضعف.

- أبرزت الدراسة نماذج معاشه للمرأة المسلمة التي واجهت التحدي الصليبي، فحملت السيف كي تذود عن عرضها، وبات الموت أهون عليها من أن يدنس شرفها.

- يلحظ المتتبع، أن موضوع الأسيرات المسلمات خلال الحروب الصليبية واسع ومتشعب، ومع علمي أن الدراسة غطت جوانب منه، فإنها في الوقت نفسه فتحت الباب

لمن لديه الاهتمام للبحث لمتابعة بعض القضايا التي أثارها البحث، كموضوع تنصير الأطفال من الأولاد والبنات الصغيرات خلال الحقبة الصليبية، وهو يحتاج لدراسة علمية مستفيضة.

- اتضح من خلال الدراسة بروز ظاهرتي القرصنة البحرية، وقطع الطرق لجلب الأسرى والاتجار بهم في أسواق النخاسة، ولعل تناول ابن منقذ وابن جبير لهاتين الظاهرتين لدليل على أنهما أصبحتا حقيقة واقعة على نحو لم يعد من اليسير اغفال تناولهما في مؤلفاتهم، وهما موضوعاً لم يلق العناية، ويفتح مجالا لمن لديه الاهتمام ويرغب بدراسته.

- أثارت مشكلة الأسيرات ردود فعل عنيفة، وتكاتف المجتمع الإسلامي على الصعيدين الرسمي والشعبي لإطلاق سراحهن سواءً أكان ذلك بالحرب أو المفاوضات أو بذل الأموال.

- اتضح من خلال الدراسة الدور المحوري الذي لعبه علماء الأمة في التعاطي مع التحدي الصليبي، من خلال التعبئة المعنوية وحفز العزم لمقاومة الغزاة، وتشكل بتأثير هؤلاء العلماء موقف رسمي وشعبي رافض للوجود الصليبي.

الهوامش والتعليقات:

(١) أنطاكية: مدينة تقع في أسفل السفح الغربي لجبل حبيب النجار يخترقها نهر العاصي، يجاورها شمالًا سهل العمق وغرباً جبل موسى. وهي مدينة تاريخيه قديمة، كانت مساحتها زهاء ٣٦ كم، ويحيط بها سور طوله ١٢ كم، وعليه ٣٦٠ برجاً، وله سبعة أبواب. انظر: المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مصطفى طلاس، ج٢، ص١٨٣-١٨٤.

(٢) تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص٨٥.

(٣) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٣٣٠، وحول هذه المجزرة المروعة انظر: أعمال الفرنجة، مجهول، ص٧٠، تاريخ الفرنجة، ريموند أنجيل، ص١٢٠، تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص١٨٤، تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص٨٥، وانظر في المصادر الإسلامية: ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص١٣٥، الكامل، ابن الأثير، ج٨، ص٤١٧، زبدة الحلب، ابن العديم، ج٢، ص١٣٥.

(٤) البارة: قرية في جبل الزاوية، تتبع ناحية أحسم، منطقة أريحا، محافظة أدلب، شمال سورية. انظر: المعجم الجغرافي، طلاس، ج٢، ص٢١٣.

(٥) تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص، ٢٥٧.

(٦) معرة النعمان: ذكرها ياقوت بأنها مدينة كبيرة مشهورة من أعمال حمص، تقع بين حلب وحماة. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج٥، ص١٨٢. والمعرة اليوم مدينة أثرية على السفح الشرقي لجبل الزاوية، مركز منطقة معرة النعمان، محافظة أدلب. انظر: المعجم الجغرافي، طلاس، ج٥، ص٣٠٥.

(٧) تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص ٢٦٢.

(٨) أعمال الفرنجة، مجهول، ص ١١٨-١٢٠، تاريخ الفرنجة، ريموند أجيل، ص٢٤٧-٢٤٨، تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص ٣١٧-٣١٩، تاريخ الحملة، فوشية الشارتري، ص ٧٤-٧٥، تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص ١٤٢-١٤٤، الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص ٤٣٤-٤٣٧. أما في المصادر الإسلامية والسريانية فانظر: ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص١٣٧، الكامل، ابن الأثير، ج٨، ص٤٢٥. تاريخ الرهاوي، مجهول، ص٧٩، تاريخ الزمان، ابن العبري، ص١٢٤-١٢٥.

(٩) قوام الدولة كربوغا: من كبار القادة السلاجقة، ولاه السلطان بركياروق الجزيرة الفراتية سنة٤٨٧هـ/١٠٩٤م، وأقام في الموصل، توفي سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م. انظر: سلاجقة الشام، إرشيد يوسف، ص١١٣-١١٥.

(١٠) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٣٦٤.

(١١) أعمال الفرنجة، مجهول، ص ١١٩، تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص ٣١٨.

(١٢) غودفري البويوني: ولد نحو عام ١٠٦٠م، وهو الأبن الثاني للكونت يوستاش الثاني، الذي ينتمي إلى السلالة الكارولنجية، شارك في الحملة الصليبية الأولى، ثم جرى انتخابه حاكماً للمملكة الصليبية وبقي إلى حين وفاته في ١٨ يوليو١١٠٠م. انظر ترجمته في: الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٤٥٠-٤٥٢

(١٣) تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص١٧٠. وأرسوف مدينة فلسطينية تقع على بعد ١٦كم جنوب مدينة قيسارية. انظر: مدن بلاد الشام، جونز، ص١٤-١٥

(١٤) شيزر: بلدة تقع على نهر العاصي، وتبعد عن مدينة حماه ٣٠كم. انظر: المعجم الجغرافي، طلاس، ج٣، ص٨٩

(١٥) الاعتبار، ابن منقذ، ص٢٠٩.

(١٦) الاعتبار، ابن منقذ، ص ٢١١.

(١٧) بوهميند، الأبن الأكبر لروبرت جويسكارد، وأتاحت له الحملة الصليبية الأولى الفرصة لتحقيق حلمه إذ تولى حكم إمارة أنطاكية منذ ١٠٩٨-١١٠٤م، انظر: الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٢١١-٢١٢.

(١٨) تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص ١٤٢.

(١٩) أورد هذه القصة. تاريخ الفرنجة، ريموند أجيل، ص٢٤٦، الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٤٣١.

(٢٠) حول إيمان اللاتين بالسحر والخرافات أنظر: تاريخ بيت المقدس، يعقوب الفيتري، ص ١٠٩-١١٠، طبائع الفرنج، حسين عطية، ص٣٣-٣٤.

(٢١) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج٢، ص٦١٨-٦٢٣.

(٢٢) التاريخ الكنسي، أورديك فيتالي، ص ١١٥-١١٦.

(٢٣) الاعتبار، ابن منقذ، ص ١٥٧-١٥٨.

(٢٤) تاريخ الحملة، فوشية الشارتري، ص ٧٥.

(٢٥) تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص١٩٠.

(٢٦) ريموند كونت سانت جيل: هو ريموند الرابع كونت تولوز وطرابلس، ولد في أغلب الظن سنة ١٠٤٣م، وكان القائد الأكثر ثراء من قواد الحملة الصليبية الأولى. انظر: الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٢١٧-٢٢٥.

(٢٧) أعمال الفرنجة، مجهول، ص ١٠١.

(٢٨) أعمال الفرنجة، مجهول، ص ١٠٦.

(٢٩) تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص ٣١٩.

(٣٠) تاريخ الحملة، فوشية الشارتري، ص ٦٣.
(٣١) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ٣٠٢.
(٣٢) تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص ١٣٦.
(٣٣) التاريخ الكنسي، أورديك فيتالي، ص ٥٨. وبلدة حارم اليوم تتبع محافظة أدلب، وتقع على الشريط الحدودي مع تركيا، وتبعد عن مدينة أدلب ٥٥كم. انظر: المعجم الجغرافي، طلاس، ج٣، ص٧.
(٣٤) التاريخ الكنسي، أورديك فيتالي، ص ٦١.
(٣٥) زبدة الحلب، ابن العديم، ج٢، ص ٢٢٤.
(٣٦) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ٢٨٣. لمزيد من التفاصيل عن الحشود الضخمة التي شاركت في الحملة الصليبية الأولى أنظر: ألكسياد، أنا كومنينا، ص٣٨٨، ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص١٣٤، الكامل، ابن الأثير، ج٨، ص٤١٧.
(٣٧) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ٣٠٧.
(٣٨) تاريخ الفرنجة، ريموند أجيل، ص١٦٤.
(٣٩) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٤٤١، تاريخ ميخائيل الكبير، ميخائيل السرياني، ج٣، ص١٥٤.
(٤٠) الرحلة، ابن جبير، ص ٢٥٢-٢٥٣.
(٤١) تاريخ الحملة، فوشية الشارتري، ص ١١٥.
(٤٢) تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص ٣١٦، وانظر أيضاً: حصن بيت الأحزان، مصطفى الحياري، ص٥٨.
(٤٣) تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص ٢٦٢.
(٤٤) تاريخ الحملة، فوشية الشارتري، ص١١٥.
(٤٥) بلدوين الأول: مؤسس أول إمارة صليبية في المشرق الإسلامي وهي كونتية الرها في الجزيرة الفراتية، وثاني ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية بعد خلافته لأخيه غير الشقيق غودفري. انظر تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص٣٢، الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٥١٨.
(٤٦) تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص١٩٠.
(٤٧) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ٤٨٩.
(٤٨) أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه أحمد بن بدر الجمالي ثاني الملوك الأرمن الذين تحكموا بالخلافة الفاطمية في مصر، اغتيل سنة ٥١٥هـ/١١٢١م. سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج١٩، ص٥٠٧-٥٠٨.
(٤٩) أعمال الفرنجة، مجهول، ص ١٢١.
(٥٠) تاريخ الفرنجة، ريموند أجيل، ص٢٦١.

(٥١) تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص٣٣٧.
(٥٢) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٤٦٠.
(٥٣) تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص٢٨٣.
(٥٤) تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص١١٦-١١٧، الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٣٧٨.
(٥٥) الاعتبار، ابن منقذ، ص ٩٦.
(٥٦) تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص١٩٨-٣٠٨.
(٥٧) الرحلة، ابن جبير، ص٢٥٢-٢٥٣.
(٥٨) تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص٣٠٨، الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٤٩٧.
(٥٩) تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص٣١٧.
(٦٠) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٣٠٢.
(٦١) تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص١٤٠.
(٦٢) تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص٢٨٣.
(٦٣) الرحلة، ابن جبير، ص٢٥٢-٢٥٣.
(٦٤) زبدة الحلب، ابن العديم، ج٢، ص١٤٢-١٤٣.
(٦٥) ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص١٩٧. لمزيد من التفاصيل عنه انظر: إمارة الرها الصليبية، محمود الرويضي، ص٤٥٥-٥١٨
(٦٦) تاريخ الفرنجة، ريموند أجيل، ص١٦٩.
(٦٧) تاريخ الفرنجة، ريموند أجيل، ص١٦٩.
(٦٨) ريموند بيليه: فارس من ليموزين كان يعمل ضمن قوات ريموند كونت سانت جيل. انظر: تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص٢٥٦.
(٦٩) تاريخ الرحلة، بطرس توديبود، ص٢٥٦.
(٧٠) أعمال الفرنجة، مجهول، ص٩٩.
(٧١) زبدة الحلب، ابن العديم، ج٢، ص١٣٨.
(٧٢) الاعتبار، ابن منقذ، ص ٢٣٠.
(٧٣) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٤٩٧.
(٧٤) تاريخ الحملة، فوشية الشارتري، ص٢١٨.
(٧٥) مجلس نابلس (٢٣ يناير١١٢٠م) وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية، حسين عطية، ص٥٠.
(٧٦) الحروب الصليبية، ارنست باركر، ص ٥٨.
(٧٧) الرحلة، ابن جبير، ص٢٥٢.
(٧٨) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٣٨٨.

(٧٩) تاريخ الحملة، فوشية الشارتري، ص١٠٩.
(٨٠) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ابن منظور، ج٢٣، ص٣٧٧، الذيل على طبقات الحنابلة، ابن رجب، ج١، ص١٦٦، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ابن طولون، ج١، ص٦٨، صلاح الدين بطل الإسلام، جينفياف شوفيل، ص٤١-٦٠.
(٨١) زبدة الحلب، ابن العديم، ج٢، ص١٨٨-١٨٩.
(٨٢) نشرت هذه الرسالة بالمجلة الآسيوية عام١٩٦٦ بتحقيق سيفان، وورد قطعة منها في كتاب: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، كلود كاهن، ص٢٨١-٢٨٢، وقد نشر سهيل زكار الرسالة كاملة ضمن أربعة كتب في الجهاد، ومن الدراسات الحديثة التي تناولتها: كتاب الجهاد للسلمي دراسة في مصادره ومنهجه ورؤيته للصراع الإسلامي الصليبي، عصام عقله.
(٨٣) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء)، ابن عساكر، ج٦٩، ص٤٦-٤٧.
(٨٤) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ج٢، ص ٣٢٩.
(٨٥) الاعتبار، ابن منقذ، ص ٢٠٩-٢١٠.
(٨٦) الاعتبار، ابن منقذ، ص ٢١٠-٢١١.
(٨٧) الاعتبار، ابن منقذ، ص ٢٤٢-٢٤٣.
(٨٨) تاريخ الحملة، فوشية الشارتري، ص١١٥، ١٤٨.
(٨٩) سادس ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية، ابن الملك عموري، وأمه أجنس ابنة جوسلين الثاني كونت الرها. عنه انظر: الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج٢، ص٩٧١-٩٧٣.
(٩٠) كان متزوجا من ماريا كومنين أرملة الملك عموري، وهو من الأمراء القلائل الذين نجوا من معركة حطين، تولى أمر الدفاع عن بيت المقدس أثناء حصار صلاح الدين لها. انظر: الحركة الصليبية، سعيد عاشور، ج٢، ص٦٣٨-٦٣٩.
(٩١) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبو شامة المقدسي، ج٣، ص٢٨.
(٩٢) الروضتين، أبو شامة المقدسي، ج٣ ص٣٧.
(٩٣) الرحلة، ابن جبير، ص٢٤٥. ونابس مدينة تقع وسط فلسطين. عنها انظر: الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٤٥٩.
(٩٤) سروج: بلدة قريبة من حران من ديار مضر، وتبعد مسافة ٤٤كم من الرها باتجاه الجنوبي الغربي. انظر: إمارة الرها الصليبية، محمود الرويضي: ص١٠٠.
(٩٥) فولبرت أوف شارتر: كان مسؤولًا عن مدينة سروج التابعة لكونتية الرها الصليبية. عنه انظر: الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٣٧٧.
(٩٦) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٣٧٧.
(٩٧) ألكسياد، أنا كومنينا، ص٣٩٠

(٩٨) ألكسياد، أنا كومنينا، ص٣٩١

(٩٩) ألكسياد، أنا كومنينا، ص٣٨٧.

(١٠٠) ألكسياد، أنا كومنينا، ص٤١٨.

(١٠١) تاريخ بيت المقدس، يعقوب الفيتري، ص ١٠٩-١١٠.

(١٠٢) تاريخ الحملة، فوشية الشارتري، ص١١٥، تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص١٩٨.

(١٠٣) تاريخ الحملة، ألبرت آخن، ص١١٦-١١٧.

(١٠٤) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٥٢٢.

(١٠٥) تاريخ الحملة، فوشية الشارتري، ص١٣٨-١٣٩.

(١٠٦) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٤٨٩-٤٩٠.

(١٠٧) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٥١٨-٥١٩.

(١٠٨) الأعمال المنجزة، وليم الصوري، ج١، ص٥٥٠-٥٥١.

(١٠٩) بانياس: مدينة سورية على ساحل البحر المتوسط، وتبعد عن مدينة طرطوس ٣٨كم شمالا. انظر: المعجم الجغرافي، طلاس، ج٢، ص٢٢٦.

(١١٠) الرحلة، ابن جبير، ص٢٤٦.

(١١١) زبدة الحلب، ابن العديم، ج٢، ص١٣٨.

(١١٢) الرحلة، ابن جبير، ص٢٥٣.

(١١٣) وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج٤، ص١١٧.

(١١٤) تاريخ الدول والملوك، ابن الفرات، م٤، ج١، ص٢٣.

(١١٥) الاعتبار، ابن منقذ، ص١٤٤.

(١١٦) الاعتبار، ابن منقذ، ص١٥٧.

(١١٧) الرحلة، ابن جبير، ص٢٥٣.

(١١٨) الرحلة، ابن جبير، ص٢٥٣.

(١١٩) الاعتبار، ابن منقذ:، ص١٥٨.

مصادر ومراجع البحث

أ- المصادر التاريخية الأجنبية:

- ألبرت فون آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ط١، ترجمة سهيل زكار، دار التكوين للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٨.
- أنا كومنينا: ألكسياد، ط١، ترجمة حسن حبشي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤.
- أورديك فيتالي: التاريخ الكنسي، ط١، ترجمة سهيل زكار، دار التكوين للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٨.
- بطرس توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ط١، ترجمة حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٨.
- ريموند أنجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ط١، ترجمة حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩.
- ابن العبري، غريغوريوس بن أهرون الملطي، تاريخ الزمان، ط١، ترجمة إسحق أرملة، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦.
- فوشية الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس (١٠٩٥-١١٢٧)، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٠.
- مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٨.
- مجهول: تاريخ الرهاوي المجهول، ترجمة ألبير أبونا، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٨٦.
- ميخائيل السرياني: تاريخ مار ميخائيل الكبير، ترجمة غريغوريوس شمعون، دار ماردين، حلب، ١٩٩٦.
- وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية: الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٠.
- يعقوب الفيتري بطريرك عكا: تاريخ بيت المقدس، ترجمة سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٨.

ب- المصادر العربية:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني: الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٢.

- ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني الأندلسي، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف بـ: رحلة ابن جبير، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، د. ت.
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، ط١١، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦، (ج١٩).
- السلمي، علي بن طاهر بن جعفر بن عبد الله الدمشقي: رسالة الجهاد، ضمن كتاب أربعة كتب في الجهاد، تحقيق سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ٢٠٠٧.
- ابن رجب، عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد: الذيل على طبقات الحنابلة، وضع حواشيه أسامة حسن، حازم بهجت، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.
- أبو شامة المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق ابراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧.
- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي الصالحي: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٠.
- ابن العديم، الصاحب كمال الدين أبي القاسم عمر: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي دهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٤.
- ابن عساكر، الإمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء)، تحقيق محب الدين عمر العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٨.
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم: تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات، نشره حسن الشماع، البصرة، ١٩٦٧.
- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي: تاريخ ابن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدروز، مكتبة المتنبي، القاهرة، د. ت.
- ابن منظور، محمد بن مكرم: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق إبراهيم صالح، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨.
- ابن منقذ، أسامة بن مرشد بن علي: كتاب الاعتبار، تحقيق عبد الكريم الأشتر، المكتب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت: معجم البلدان، تحقيق مزيد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

ج- المراجع العربية والمعربة:

- إرشيد يوسف: سلاجقة الشام والجزيرة في الفترة ما بين ٤٣٥-٥٧٠هـ، عمان، ١٩٨٨.
- ارنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، د. ت.
- جونز: مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة احسان عباس، دار الشروق، عمان، ١٩٨٧.
- جينفياف شوفيل: صلاح الدين بطل الإسلام، ترجمة جورج أبي صالح، دار الأميرة، بيروت، ١٩٩٢.
- حسين عطية: طبائع الفرنج في الحملات الصليبية في ضوء المصادر اللاتينية، ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٠.
- حسين عطية: مجلس نابلس (٢٣ يناير ١١٢٠م) وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠١.
- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ط٦، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٦.
- عصام عقله: كتاب الجهاد للسلمي دراسة في مصادره ومنهجه ورؤيته للصراع الإسلامي الصليبي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، م٤١، ع٣، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠١٤.
- كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة احمد الشيخ، دار سيناء، القاهرة، ١٩٩٥.
- محمود الرويضي: إمارة الرها الصليبية، عمان، ٢٠٠٢.
- مصطفى الحياري: حصن بيت الأحزان جانب من العلاقات بين المسلمين والفرنجة الصليبيين زمن صلاح الدين، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، م١٣، ع٤، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٦.
- مصطفى طلاس (مشرف): المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ١٩٩٢.